الباب الخامس

التأثيرات العربية تخلق نوعية حياة جديدة

- الملابس العربية تضفي بهاء على من يرتديها.
- الأنامل العربية تطرز رداء القيصر الألماني.
- أحد المسلمين يتحول إلى قديس للإمبراطورية.
- الهبات العربية للكنيسة والمنزل والحدائق.
- المهن العربية والصناعات الأوروبية.
- الدينار الذهبي العربي أو "دولار العصر الوسيط المبكر".

التأثيرات العربية تخلق نوعية حياة جديدة

لقد أصبحنا الآن شرقيين

إنهم يأنفون من لعب الشطرنج والنرد، كما أنهم يكرهون الصيد، بل إنهم لا يسعدون بتحليق الصقور وهم يحتقرون الكوميديين. . وكذلك عروض الهزليين كما أن شعورهم مقصوصة لأنهم يعتقدون أنه من العار أن يكون شعر الرجل طويلاً، وهم لا يبالغون مطلقاً في أزيائهم، ونادراً مايستحمون فهم قذرون يكسوهم الشعر وتبدو بشرتهم وقد لوحتها الشمس وحمل الدروع.

من هو الذي يتم امتداحه هنا بتلك التنهدات المسموعة؟ إننا نتذكر أن أسقف كليرفو أراد بمدحه "لطبقة الفرسان الجديدة" أن يضع خطاً فاصلاً واضحاً بين فرسان المعبد والفرسان الآخرين الدنيويين الأقل درجة، إلا أن استحسانه ذاك يخفي إحساساً بالشك والقلق وعدم الارتياح، فما السبب الذي جعله لا يرسم الصورة النموذجية لفرسان المعبد كما هم أو كما يجب أن يكونوا؟ ولماذا يمتدح الخصال التي ليست فيهم وما لا يفعلونه وما الذي لا يسبب بهجتهم؟ إن ما ينم عن ذلك هو اختياره لتلميحاته المستمرة بالشطرنج، والهزليين، وتربية الصقور، والشعور الطويلة، الاستحمام. وعندما تلقى نظرة فاحصة بشكل أكبر يتضح مثلاً أن تلك السلبية لطائفة الفرسان التي يمتدحها ليست شيئاً آخر سوى الجوانب الأخرى "الإيجابية" لفرسان البلاط في الأرض المقدسة، أو بتعبير أكثر دقة: إنها رسم توضحي لأسلوب الحياة العربية في الملبس والعناية بالجسد وقضاء أوقات الفراغ وهي الأساليب التي وجد المناضلون ضد الكفار أنهم قد وقعوا أسرى لها ولا محيدَ لهم منها. كما أن ما جعل ذلك الأمر أكثر خطراً هو أن العائدين إلى

أوطانهم قد أصابوا من ظلوا في أوطانهم بالعدوى وكان ذلك يعني بالنسبة إلى الزعيم الروحي للمسيحية الغربية تضليل الروح المسيحية عن طريق الأفعال الآثمة للكفار وهكذا كانت تبدو الصورة المغايرة التي يصفها برنهارد بسخط عميق نحو فروسية البلاط التي وقعت بالفعل ضحية للأعمال الآثمة للكفار، أي تجاه فرسان الرب الجدد الذين كان يجب أن يصبحوا مثالاً رادعاً:

" إنكم تزينون جيادكم بسروج ذهبية، وتغطون أسلحتكم بأغطية كثيفة، كما أن رماحكم موشاة وكذلك دروعكم وسروجكم، كذلك تحلّون الألجمة والمهاميز بالذهب والفضة والأحجار الكريمة. وبذلك البريق الذي يمتزج بالغضب الأعمى والوقاحة الحمقاء، تخوضون المعارك فهل تعد هذه الزينات الباهرة مناسبة للفارس أم أنها تصلح أكثر لبائعات الهوى؟ وهل تعتقدون حقاً أن سيوف العدو سوف تضع اعتباراً للذهب والأحجار الكريمة ولن تخترق الملابس الحريرية؟ لقد علمتني التجربة أن هناك أموراً لازمة للمحارب؛ يجب أن يكون شجاعاً وعلى استعداد دائم للقتال. ولكنكم تتركون شعوركم طويلة مثل النساء بحيث تحجب عنكم الرؤية، كما أنكم تحدون من حرية حركتكم بهذه الملابس الفضفاضة كما تخفون أيديكم الرقيقة الناعمة في أكمام واسعة تتدلى حولكم " .

أما بالنسبة إلى العربي المسلم الذي يعرف حقاً كيف يجمع بين الروح والمادة والدين والدنيا، والعقيدة والحياة، فإن جمال الروح والتقوى الشديدة والمهارة الفائقة في القتال والعناية بالجسم وواجبات العقيدة كل هذه الأشياء لاتتناقض مع بعضها كما هو الأمر بالنسبة إلى الفكر المسيحي المحكوم على الدوام بين المديح أو الإدانة التامّة.

خلال استعراضه للفروسية سواء من الناحية الدينية أو الدنيوية فإن القس كليرڤو قد امتعض من لجوء المسيحيين إلى تقليد أعدائهم العرب بصورة أصبحت أشبه بالصرعة. ثم ألا يكون من نشأ في ظروف بسيطة وفقيرة في الغرب وفتح فمه وعينية دهشة أمام ذلك العالم الشرقي الأخّاذ. ويغسلها مضطراً إلى أن يقف مبهوراً أمام بريق وعظمة تلك الحضارة الرفيعة؟

وكانت أسرع نتائج تلك الاتصالات التي جرت خلال فترات السلم، طالت أو قصرت، بين الصليبيين الذين استوطنوا هناك وبين الأمراء والفرسان الفلسطينيين والسوريين وبين العمال والفلاحين هي أنها أدت إلى تزايد التجانس بين بعضهم مع بعض. وأدى ذلك إلى اكتساب عادات العرب في معيشتهم تماماً وهي التي كانت فوق ذلك تتلاءم مع البلاد والمناخ بصورة أفضل من عاداته الخاصة. ثم من ذا الذي يمكنه أن يأخذ على الفارس أنه عندما يعود من جولة أو معركة تحت الشمس الحارقة أن يستبدل دروعه الثقيلة بجلباب عربي فضفاض سهل التهوية. وعندما - كما كان يعمل تانكريد وبالدوين الأول- يرتدي هذا الفارس الجلباب الحريري الفاخر والعمامة التي أهداهما إليه أحد الأمراء أو السلاطين العرب؟ أو عندما كان بسبب ندرة الأخشاب يستريح حسب تقاليد البلاد فوق الوسادات والأبسطة والحشيات الناعمة داخل البيوت الحجرية بسبب ندرة الأخشاب، كذلك عندما كان يأكل ثمار البلاد المعدّة على الطريقة العربية وينغمس من ثم ودون أن يدري - لأن صورة جيرانه وخصومة ماثلة أمام عينيه - في طريقة تعاملهم وأسلوبهم في الحياة. أو كان الأمر يصل إلى أبعد من ذلك كثيراً حين قام الملك بالدوين " ملك القدس " بالإعلان عن قدومه بالمزمور وحمل درعه المنقوش عليه شعار النسر أمامه على شاكلة الحكام الشرقيّين وهو ملتحٍ على طريقة النبي

ومرتدياً ثوباً ، قماشاً حريراً عربياً باهظاً؟ وعندما كان فرسان المعبد يضعون على أكتافهم تلك المعاطف السوداء أو البيضاء التي تشبه عباءات أعدائهم العرب الطويلة والفضفاضة ولا يفرقها عنها سوى الصليب الظاهر عليها؟

وليس هناك شك في أن مثل محاولات التأقلم تلك كانت تلقى ليس القبول فحسب أو تبرر الإحساس بالقلق بالشك من أن بعض الوافدين بسبب شعورهم بالغربة والحيرة أدركوا ذلك الإحساس الفريد بالألفة كما أدركوا مدى التغيير الذي طرأ على مواطنيهم في تلك البلاد .

ويتضح المدى الذي وصل إليه فرسان الصليب من الدول الصليبية الفرانكونية في دهشتهم إزاء هذا التعبير حيث قال أحد الفرسان لنا : راقبوا وتأملوا كيف حول الله الغرب إلى شرق، إننا، نحن الذين كنا غربيين قد أصبحنا الآن شرقيين . إن من كان يعد رومانياً أو فرنسياً قد أصبح هنا من الخليل أو فلسطينياً . كذلك فإن من كان يسكن - إيمس أو كارتري، أصبح يشعر الآن كما لو كان مواطناً من حراس طرسوس أو أنطاكية . بل لقد نسينا مسقط رأسنا فلقد أصبح بعضنا لا يعرفه أو على الأقل لم يعودوا يسمعون منذ وقت طويل عمن يتحدث عنه، ذلك لأن الناس كانوا يمتلكون هنا المنازل الخاصة والعائلات من الفلاحين المقيمين كما لو كانوا ورثو ذلك عن آبائهم . وكان البعض الآخر يتزوج امرأة ليست من مواطناته على الإطلاق . بل من السوريات أو الأرمنيات أو حتى عربية تنصرت وأصبحت تعيش الآن مع عشيرة زوجها . . . . وكانوا يتحدثون لغات مختلفة . وعلى الرغم من ذلك فقد تمكنوا جميعاً من أن يفهم بعضهم بعضًا . وهكذا فإن تلك اللغات المتباينة أصبحت على العكس نسخة مشتركة بينهم، كما أن مشاعر الشفقة عملت على التقريب بين الأجناس المتباعدة . ويوماً بعد يوم

كان أقرباؤنا وأحباؤنا يأتون إلينا هنا ويتخلون عمّا يمتلكونه في بلادهم. كما أن من كانوا فقراء في أوطانهم قدجعلهم الله هنا أثرياء، ومن كان يمتلك قطعة صغيرة من الأرض. أصبحت لديه هنا الكثير من الأراضي، كما أن من كانت لديه مزرعة واحدة أعطاه الله هنا مدينة، فما الذي يدعوه إلى العودة إلى الغرب إذا كان يجد الشرق مناسباً إلى هذه الدرجة؟.

وكانت هذه الجاليات الأوروبية الأولى هي المراكز الرئيسية التي نقلت العادات والتقاليد العربية إلى أوروبا.

الملابس العربية تضفي بهاء على من يرتديها:

لا تذكر الوثائق حتى تأسيس الطائفة الألمانية سوى أسماء قليلة لألمان ممن بقوا في الأرض المقدسة. إلا أن عدداً لا حصر له من الحجاج اتصل بعضهم ببعض خلال الحروب الصليبية التي استمرت مائتي عام - من ١٠٩٦ حتى ١٢٩١ - سواء كفرسان من الحجاج أو المحاربين أو كتجار مع هذا العالم المثير الغريب. كما تنسموا عبير ذلك الجو الذي يأخذ بالألباب لمدنهم وقلاعهم ذات التأثير الكبير وكنائسهم الموشاة بشكل مبالغ فيه بالأعطيات التي تمنح لها وجوامعها التي تلمع ببريق الذهب، والأسواق التي تجيش بالروائح النفاذة وخيام الحواة والمهرجين والأسواق الشرقية التي تحوطها الأسرار والغموض. فهل كان من الممكن أن تنمحي من أذهانهم ذكرى كهذه كما ينزلق المطر على صفحة زيتية؟ ثم ألم يكن ما خلب ألبابهم هناك (جديراً) بأن يثير لدى العائدين إلى أوطانهم ويعيشون في ظروف متواضعة، الرغبة في أن تصفو حياتهم اليومية الروتينية و أن يعيد تشكيل وجودهم، الذي كاد يستقر على حالته البائسة، بصورة أكثر راحة وألفة وتنويعاً؟ وتحتوي اللغة الألمانية على الكثير من الكلمات المستقاة من اللغة العربية كما

احتفظت أيضاً بكنز من اللغات الشرقية الأخرى - عبر اللغة العربية - والتي لا تزال حتى اليوم تحمل ملامح انتمائها، ونحن نوضحها فيما يلي بالكلمات (بين الأقواس) [١] :

فهناك على سبيل المثال الأشياء اللازمة للراحة العربية والتي يزين بها العائدون إلى أوطانهم مساكنهم والتي نسميها (الكومثين[٢] ، الديوان، الصوفا، الماترتسا[٣] ، الأوتومانة)[٤] . كذلك فإن أشعار البلاط تحمسّ في القصور الحياة اليومية للفرسان وهم يستخدمون وسائل الراحة الفاخرة في الحجرات المدفئة وصالات القلعة وقاعات الاحتفال ، كما أن الشعراء عملوا على تأكيد شعورهم الشديد بالدهشة مثلما جاء في "نشيد نيبلونجن" أن كريمهيلد، وهي سيدة بلاط حقاً، قد استقبلت جونتر وزيجفريد في جناحها ودعتهما إلى الجلوس" حيث جلسا على أسرة وثيرة فاخرة، موشاة بالذهب" . وإذا كان المرء ينتظر ضيوفاً فقد كان المرء يغطي الجدران والأرض العارية بأبسطة ملونة زاهية مليئة بالأشكال والحلي الرقيقة، مرسوم عليها أسود وحيوانات خرافية وغيرها من حيوانات الأساطير . كما كانت تستخدم ستائر غالية تقسم بها الردهات تماماً مثلما حدث عندما استقبل شارلمان العظيم ضيوفه من بغداد" بالعطور والهدايا الثمينة" .

(١) بديلاً عن الكتابة الماثلة في الأصل .

(٢) قبة السرير / غرفة جانبية صغيرة للنوم .

(٣) ماترتسا : مَرْتَبَة

(٤) أريكة .

وفيما يتعلق بسلامة التقدير كان صفة مميزة لدرجات الألوان المستخدمة فقد بدأ يطغى عليها الآن تيار من الألوان الوردية الدافئة مثل القرمزي والأحمر القاني والليلاك والبنفسجي والأزرق اللازوردي اللامع والأخضر الزفير والأصفر الزعفراني، وذلك أن هذه الألوان تُحيي وتجمل المواد البراقة واللامعة التي أضفت بها صناعة الحرير السورية بشكل خاص مسحة من الترف على بنك والحرير الدمشقي (نسبة إلى دمشق) والتانتان والأطلس والساتان والموهير والكريب ماروكين وغيرها التي لم تتغير أسماؤها إلى اليوم على الإطلاق. ويصف "نشيد جودرون" الفارسين (هوراند وڤاتين) وهما في زي التجار وهما يعرضان تلك الأشياء الثمينة من التطريز العربي وهي عبارة عن ستين قطعة، من أفضل مايجده المرء، وأربعين قطعة أخرى كانت تحمل إلى الشواطئ مع الصبغات الحمراء والحرير البغدادي.

وقد كان ذلك عبارة عن مواد حريرية عربية غالية: مثل القماش الأحمر الذي يحاك من نماذج رائعة من الخيوط الذهبية الحقيقية. قد أصبح أخيراً عبر اللاتينية الوسطى يسمى شارلاخ، أو الحرير البلداخي الرقيق من (بلداك) أو بغداد واستخدم بشكل خاص في الديكور.

وقد حلّق الشعراء في رسم تلك الحرائر الثمينة والغالية التي كانت ترصع بالأحجار الكريمة كما ترصع السماء بالنجوم:

من الحرير العربي ... الأبيض كالثلج
والنزازمنك الجديد ... الأخضر كما العشب
نسقوا الأحجار ... التي صنعت رداءً جميلاً
وقد صنعته كريهيلد ... الجميلة بأيديها

وسواء كان أبطاله يخرجون في " زفة العروس " أو إذا ما استقبلوا ضيوفاً، فإنَّ نشيد نيبلونجن لم يترك مناسبةً دون أن يصف الثياب الفارهة والموشاة بخيوط الذهب والفضة التي تزيّن بها أيدي النساء الماهرة ملابس سيدات القصر والفرسان. كما أنّ الحزام الذي سلبه سيجفريد من برونهيلد في ليلة الزفاف وأخذ يتباهى به أمام الحسّاد، إنما يمثل قطعة حلي عظيمة.

من حـــريـر نـيـنـفــر ... ارتـدت فـســتــانـاً
كـان مـزداناً بالجـواهـر النفـيـسـة ... ذات الجـمـال الأخـاذ
وكـان النطاق ذا فن جـمـيـل ... ثـمـين وطـويـل
كـانت أيدي النســاء تتـأرجح ... فـوق الملابس الخـفـيـفـة
وحـول التنورة الـغـاليـة ... من الحـريـر الـعـربي

ولا يدع الشاعر أي مجال للشك في مصدر كل تلك الأشياء الرائعة:

من أرض المغرب ومن ليبيا كذلك تأتي أفضل الحرائر التي يرتديها أبناء الملوك ولديهم منها الكفاية ظلت كريمهيلد تستمتع برؤيتها بقدر حبها لها.

إن بعض الجواهر البراقة مصنوعة من الذهب العربي

وكـان لـدى الـنـســاء ... وقـت طـويـل
فـصـنـعـنـا الـرداء ... في أســابيع ســبع
وشـحـذن الـهـمـة ... وأعـددن الـعـدة

إذ من أين يمكن أن يأتي سوى من هذه الدول العربية التي زاد مديحها بها خلال ذلك العهد (أجمل الأشياء وأنبلها وأغلاها) وهي الملابس المنتقاة بدرجة تكفي

لإلباس الفرسان لكي تراهم السيدات النبيلات وكذلك لتتزين بها السيدات النبيلات عندما يظهرن بها أمام الضيوف .

ولكن أيضاً قماش الكاميلوت "الدافئ و "لما خيكر " أو الموهير من وبر الجمال أو الماعز كان مفضلاً. وكذلك البازخنت (والبوخيرانت) أو البوخاري المصنوع منزلياً من القطن من بخارى والذي كانت ترتديه الجميلات أثناء أداء الأغاني الريفية مثل "نايد هاردت فون رونيتال " ، وكذلك البومباسين من القطن الخفيف والقطن الناعم والموسلين من الموصل بدأت تملأ صناديق ملابس ربات البيوت وتشكل حياتهن اليومية بصورة أكثر تنوعاً. ولقد كان البارخنت بشكل خاص يحظى بقبول شديد في ألمانيا إلى حدٍّ أن شقيقين من جرابن بالقرب من أوجسبورج قد توصلا إلى فكرة إنتاج البارخنت في مصنعهما الخاص من القطن الذي يستوردانه من سوريا وقبرص وحققا ببيعه رواجاً كبيراً - وهي الفكرة التي حققت مكانتهما العالمية بالفعل على أساس بالات القطن وأكياس الفلفل العربي .

لكن هيجان هذه الصرعة الكبيرة لم يكن يأتي فحسب بالأقمشة والألوان والزينات من الشرق إلى ألمانيا ، بل أيضاً بأشكال جديدة تماماً للملابس الخاصة بالمرأة والرجل والتي تأصّل بعضها إلى درجة أننا لم نعد نكتشف فيها أصلها العربي .

كما أنّ الأحذية العربية نفسها أعطت أشكالها للبانتوفلي و "البابوش ، وكذلك فإن "الألشين" أخذ اسمه من مدينة "غاداما" في شمال إفريقيا . ونسيج الحرير من الكلمة العربية " القز هو المصنوع من الحرير الخام الشفاف أو القطن ويستخدم كمادة لصنع الضمادات وكقطع اكسسوار (زينة) هامة لملابس السيدات العربيات "مثل الطرحة التي كانت تنسدل منذ عام ١٢٠٠ على شعر النساء والفتيات

الألمانيات وتغطي مؤخرة الرأس والأكتاف في ثنيات حرة. وسرعان ما أخذت نساء الشعب تلفها بإحكام حول الرأس والذقن والرقبة بصورة لا تختلف عن الكوفية العربية. ولم تختف الطرحة حتى الآن من دولاب النساء، بل إنها حازت لبعض الوقت على قدر من التفضيل إلى حد أن صدرت تعليمات خاصة بالطرحة في المدينة للتصدي بعنف ضد الترف الذي تمثله المناديل الصغيرة المثيرة للإعجاب.

كذلك لم يكن الرجل يرتدي فقط الكوفية العربية كحلية للقبعة التي تدخل ضمن معداته كفارس، بل كان يلف أيضاً منديلاً يشبه العمامة حول رأسه، به حواف متدلية، وظل صرعة الرجال لوقت طويل.

وفي مقابل ذلك فإن الكاسكيت المأخوذة من كلمة "المستبقي" العربية لها شجرة عائلة وهو ما يثير الدهشة وذلك أنها تعتبر الجد البعيد للمعطف العربي ذي الكاب المصنوع من الفرو ذي الأكمام الطويلة الذي جاء إلينا مع المنتجات العربية عبر صقلية وإسبانيا العربية باسم "الموكيا" وعبر الألب. واتخذ هنا منحىً ذا اتجاهين؛ ذلك أنه بينما تحول في ناحية – شبيهاً بالكاب والغطاء – إلى كلمتي "موتسة وموتسن، وبعد التخلي عن غطاء الرأس، تحول إلى جاكت، فإنه فقد من ناحية أخرى المعطف وتقلص ليصبح مجرد غطاء للرأس باسم "الكاسكيت".

كذلك فإن كلمة "Kittel" أي المعطف الخفيف – ذلك الرداء القطني الشبيه بالقميص الذي يستخدمه الرجال والنساء هي كلمة ذات رنين – مثل كلمة "Kattun" التي تشبه كلمة "قطن" العربية. كذلك فإن ما أخذه بيرنهارد فون كليرڤو على الفرسان من أنهم يرتدون الأكمام الواسعة جداً التي تتدلى برحابة حولهم قد أصبحت موضة شائعة، وأصبحت أيضاً تتدلى من الأيدي الناعمة للرجال والسيدات التي تنسدل وتطول دائماً مثل أكمام الموارنة، .

أما الرداء الخارجي العربي ذو الأكمام الطويلة المسمى "الجبة" فقد سمي في ألمانيا جوبة وهي الشبيه بالرداء الألماني الذي يلبس ومن ناحية أخرى فإنها تطورت بشكل مميز لتتحول إلى المعطف الفرو الذي لا يزال يسمى حتى اليوم في سويسرا "Schube" وهو تطور خاص نحو المعطف المفتوح الياقة عريض الأكتاف الشبيه بالشال الذي كان يغطي غالباً بالفرو. وظلّ الرجل يرتديه في المناسبات الرسمية حتى عصر الإصلاح.

وسوف نلتقي بأشياء أخرى معروفة ذات أصل عربي دون أن يخطر ببالها أصلها العربي ولكن أيضاً بدون أن نشعر بالمفاجأة خاصة في ملابس الرجل المهنية في ذلك الحين أي ملابس الفارس الذي احتك خلال المعارك مع العرب بصورة مباشرة.

الأنامل العربية تطرّز رداء القيصر الألماني

كانت القوتان اللتان تحكمان في ذلك العهد، وهما الإمبراطورية والكنيسة، بمثابة هدية آتية من العرب وتعتبران بصفة خاصة نتاج موهبة عربية متميزة يجب علينا أن نعطيها بعض الاهتمام، ذلك أنه بدون أن نفهم تلك الموهبة العربية لن يكون في وسعنا أن نعطي تقديراً صحيحاً لأحد الملامح الأساسية التي تميز الروح العربية.

إذا كان الشخص العربي - ليس بدافع الحظر الديني في الحقيقة بقدر ما هو بدافع من الميول الذاتية- يتجنب تصوير الأشكال الطبيعية[1] للنبات، أو الحيوان، أو الإنسان، أو حتى الله، في الفن، فإن كل قواه التشكيلية الخلاقة التي قامت بدورها الخاص بتحويل الحقيقة إلى خيال بتلك الصورة الغنية بالتعبير في الشعر الوصفي، إن هذه القدرة إنما تتجسد في الفن الوصفي للطبيعة. ويمكن أن نقارن بين ذلك الوصف وبين الجرماني الذي يصف الحيوانات وصفاً جمالياً. فالعربي يعمل عن طريق التداعي في إبراز الأشياء التقليدية ويضعها جميعاً بنفس الصورة وعلى نحو متكرر، وفق إطار شامل: تلك هي زخرفة الأسطح التي تسمى "الأرابيسك". وفي تناقض واضح مع الزخرفة الهيلينية - الرومانية ومع "أرابيسك عصر النهضة" الذي يتميز بكثرة تصويره للزهور والذي أعطيت له هذه التسمية خطأ، نجد أن فن الأرابيسك العربي الذي يأخذ أنقى أشكاله في الرسومات الهندسية المجردة، يبدأ في الخروج عن نطاقه الذاتي في ترتيب متناسق إلى حد بعيد ليعبر عن نفسه في عملية تداعٍ لا حدود لها من كافة الجوانب. ويبدأ

(١) المحظور تصويره في الإسلام هو الإنسان والحيوان أما الأشجار والأنهار ومظاهر الطبيعة الجميلة فليست محرمة في الإسلام. أما تصوير الإله فلم يخطر ببال أي فنان مسلم أبداً.

العربي ببساطة في استغلال كل شيء لفرض الزخرفة التي تبدأ في تغطية مساحات كاملة في كافة الاتجاهات وهو مأخوذٌ بالرغبة الجامحة في التكرار المنظم غير النهائي. كل ذلك بدون بداية أو نهاية وبدون حدود وبدون نقطة ارتكاز، بل الأصح بعدد لا نهائي من نقاط الارتكاز.

إن ذلك هو ما يمثل جوهر فن الأرابيسك الذي يشكل العربي من خلاله التعبير الأزلي الخاص عن مكنون نفسه المشبعة بالتدين الدائم، ولكن الأرابيسك يظهر موهبة الزخرفة لدى الإنسان العربي الذي يغدو الخط له - مثل أسماء الله، وآيات القرآن، وأبيات كبار الشعراء فهي زخرفة بحد ذاتها، والأرابيسك تبدو وكأنها تتحرك وفق قانون محكم ومتناسق عبر المساحات والجدران. ولقد أخذت شرائط الخط العربي تزّين منذ القرن الثاني عشر، وبصورة أكبر في القرنين الثالث والرابع عشر، الكتب والأكواب، وحوائط الكنائس الألمانية في صورة إطارات وبراويز وحليات. كما كان هناك ميل خاص إلى كلمات مثل "على بركة الله" من بين غيرها من التمنيات الإسلامية الطيبة التي كانت توضع دون دراية بدلاً من الكتابات اللاتينية حتى على كؤوس المناولة وأطباق الخبز. وكان يجري وضعها دون معرفة بها على أطراف الملابس وهالات القديسين وعلى قطع النقود، وحيث يمارس القديسون طقوسهم كما حدث في براونشتايج، وفي زيجبورج، وسين تسيج وكولون وترير ومانتز وماريوزج وسالزبورج.

استطاع العرب بفضل عبقريتهم الزخرفية أن يبدعوا أعمالاً فنية تتسم بالبساطة والزخرفة في آن واحد كما تبدو فيها الحركة والهدوء الشامل والماديات والروحانيات الخالصة، حيث تكوّن وحدة متناسقة لا يفوقها شيء وتشع تناسقاً وجمالاً لا حدودَ لهما. وكما أن العرب قاموا بنحت أعمالهم الزخرفية على

الحجارة، والجبس، والخشب، والعاج ورسومها على الموزييك، والفخار المزجج أو نقشوها على المعادن والجلود فإنهم نسجوا أيضاً أعمالاً فنية حقيقية على الأصواف وحتى على الأنسجة والقطنيات، كذلك فإن نسورهم وطواويسهم وأسودهم والأشكال التي لها رأس إنسان وجسد حيوان، لاتزال تزين حتى اليوم الصناديق الزجاجية في المتاحف الألمانية وكنوز الكنائس، كما تزين اللوحات القماشية، ثمَّ إنهم طرزّوا أعمالهم الزخرفية على الحرير الرقيق والحرائر الدمشقية المتينة التي كانت تتدلى من على أكتاف الملوك والأمراء وهي محلاة بالذهب والفضة واللآلئ.

إن أشهر ، وأغلى قطعة بين رموز التتويج الخاصة بالإمبراطورية الرومانية المقدسة والتي يعني امتلاكها قانونية وشرعية السلطة، تتجلى في معطف تتويج القيصر والملوك الألمان. كما أن من غرائب التاريخ أن معطف القيصر هذا كان القيصر فريدريك الثاني فون هو هنشتاوفن - وهو الأول في سلسلة طويلة - أول من تم تتويجه من الحكام الألمان وذلك في ٢٢ نوفمبر ١٢٢٠ في روما، قد صنع هذا المعطف بأيد عربية .

وما يزال بريق ذلك المعطف المعروض في قلعة هومنبورج في ڤيينا في مواجهة الحائط الخلفي لغرفة الكنوز الدنيوية يخطف الأبصار، حيث تمّ نقله إلى هذا المكان مع تيجان الامبراطورية بعد الحرب العالمية الثانية بعد أن قضى فترة مؤقته في نبرنبرج وحتى اليوم لا يزال يعتبر عملاً فريداً في فن الزخرفة الذي لا يمكن لأي شكل آخر من أشكال التصوير الفوتوغرافي أن يعطي نفس تأثيره. وكان الأسرى البيزنطيون قد نسجوه من الحرير الأحمر القاني، كما قام صانعو الحُلي واللآلئ العرب بإضافة قدر وافر من خيوط الذهب وصفوف اللآلئ المزدوجة.

وهناك أسد هصور تنعكس صورته على جانبي شجرة نخيل في شكل معكوس كالمرآة، وكان الأسد يعتبر رمزاً لسيادة الرومان وقد أخذ عن العالم الإسلامي هذا الأسد على جمل وهو ينشب مخالبه في الحيوان المتهاوي، وذلك كرمز لانتصار النورمانديين والاستيلاء على صقلية العربية، وكان العرب- على العكس مما هو الحال لدينا - يكنون تقديراً كبيراً للجمل ليس فقط بسبب فوائده الجمّة، ولكن لأن ذلك الحيوان المفضل كان يعتبر أكثر المخلوقات حكمة بل وأحكم من الإنسان، وكما يقول العرب فإن الإنسان يعرف فقط ٩٩ اسماً من أسماء الله، في حين أن الجمل يعرف أسماءه المائة ولكنه لا يفصح عنها. وإلى جانب رأس الأسد العجيبة فإن هناك زخرفة أرابيسكية هندسية تزدان بالأحجار الكريمة الحمراء تزين درع الصدر الذهبي لذلك المعطف الفاخر. كذلك كان هناك على المعطف شريط عريض مكتوب عليه بالعربية: تمت حياكتُه في الورشة الملكية العامرة بالسعادة والشرف، والرخاء والكمال والإنجاز والشهرة، وذلك في مدينة صقلية في عام ٥٢٨» وهذا يعني : أنه وفقاً للحساب العربي للزمن فإن عام ١١٣٣ / ١١٣٤ بعد الميلاد، هو العام نفسه الذي تم فيه في باليرمو تتويج الكونت النورماندي روجر الثاني في أبهة ملوك الشرق ملكاً "وسيداً على الصقليتين" وقد أصبح روجر صهراً لهاينيرك السادس فون هوهنشتاوفن وجد القيصر فريدريك الثاني .

وليس معطف التتويج هو القطعة الوحيدة من أعمال النسيج والتطريز العربية الموجودة بين كنوز التتويج الألمانية. وقد يبدو الأمر غير قابل للتصديق، ولكن في الحقيقة نجد أن كافّة حُلي القيصر تنتمي إلى المصنع نفسه في باليرمو. وكان الأدميرال العربي الكبير الذي يعمل في خدمة الملك روجرز الثاني، قد أخذ بعض نسَّاجي الحرير البيزنطيين أسرى للعمل في ذلك المصنع وقادهم إلى

باليرمو. وكان يعمل معهم النساجون العرب وصناع الذهب والمتخصصون في استخدامه في التزيين وفق أجمل النماذج. وقد أوكلت مجموعة للإتيان بهم من كافة أرجاء العالم العربي وإلى جانب القطع الموروثة عن الأمراء النورمانديين فهناك رداء الدلماتيكا[1] الذي صنع أيضاً من أجل روجرز الثاني الأحمر القاتم المائل إلى الزرقة - وهو الرداء الذي يلبس في بداية التتويج وبه شريط عريض عند الساعد- ويبدو في صورة متناسقة نتيجة لرقائق الذهب بين زخارف الأرابيسك الموشاة بالذهب واللؤلؤ فوق الحرير الأحمر، تتناسق مع معطف تتويج روجرز، وهناك أيضاً قميص الرهبان الأبيض الطويل الذي يحمل فوق الدلماتيكا إعلاناً عن الطبيعة الدينية لمنصب القيصر أثناء الاحتفالات الكنسية، وهو مصنوع من التافتاة الفاتحة وزخارف كثيرة وأطراف عريضة على الصدر والأذرع تظهر عليها أشبال لاهية مع مخلوقات لها رأس إنسان وجسد حيوان في صورة حلية والمشكّلة من زخرف اللؤلؤ ذي الخطين من الأرابيسك وتحدّق هذه الأشكال بالعين وكانت قد صنعت من أجل الحفيد الأكبر - للملك روجرز، وهو الملك النورماندي ڤيلهلم الثاني، كما أنّ الكتابات العربية على الجوارب الحريرية الحمراء المطرزة بالذهب واللون الأخضر تشير إلى تتويج آخر ملوك النورمان في صلقية. ولكن كيف وصلت هذه القطع إلى مجموعة حلي القيصر الألماني؟ ثم ألم تكن هناك أردية أكثر قدماً خاصة ببيوت القياصرة الألمان؟ .

كان لفردريك الثاني أسبابه التي تدعوه إلى تذكر ذلك الميراث الصقلي الذي وصل إليه عن طريق والدته النورماندية. كما أن القيصر أوتو الرابع الذي مات عام ١٢١٨، وهو ابن هانيريش الأسد، الذي كان يشعر حتى وفاته بأنه قيصر حقيقي،

(١) الدلماتيكا: رداء ديني خاص بالاحتفالات الدينية.

أوصى بأن يوارى الثرى وهو مرتدياً رداءه القيصري في كنيسة براون شفايج .

وكانت حلي التتويج مع تاج القيصر أوتو العظيم بين يدي أخيه هايزيش فون ساكس الذي رفض التخلي عنها ، حتى اضطر فريدريك آخر الأمراء إجبار البابا على التدخل وإلا فإنه سوف يتخلى عن التتويج والحملة الصليبية . ولهذا اضطر إلى اللجوء إلى الأردية الفاخرة لآبائه النورماندين حتى يظهر أثناء التتويج في روما في أبهى زينة تليق بجلال القيصر . كما أمر مطرزي الذهب العرب التابعين له بإصلاح القميص الأبيض بسرعة واستكمال رداء القيصر الرسمي بقفازات مناسبة من الحرير الأحمر التي كانت تحمل رسوماً لنسور على جانبها الداخلي وأحذية من الحرير الأحمر أيضاً ، والأحجار الكريمة الحمراء والمجوهرات من سمرقند وأحجار شبه كريمة ، وأشرطة مذهبة ذات نعال جلدية . وبدلاً من تاج القيصر القديم كلف الصناع بعمل تاج خاص من الذهب مُرصّع بالأحجار الكريمة واللؤلؤ . وبعد عامين من التتويج وأثناء الوفاة المبكرة لزوجته كونستانس ، وضع التاج مع نعش زوجته الحبيبة التي تم تتويجها قيصرة إلى جانبه . ولا يزال هذا التاج حتى اليوم بين كنوز كنيسة باليرمو .

كذلك فإن مصنع صقلية أنتج قطعة جديدة عبارة عن سيف للاحتفالات طوله أكثر من متر طلي مقبضه بالذهب ، كما أن غمده الملفوف في خيوط من الفضة المذهبة كان أيضًا مرصعاً بالأحجار الكريمة واللؤلؤ ، ورقائق الإيماليا بين مسطحات السيف المشكلة من الجدائل الدقيقة . وهذا هو السيف الذي وضعه فريدريك بعد التتويج على كتف مبعوث نيرنبرج للدلالة على أنه أصبح فارساً .

أحد المسلمين يتحول إلى قديس للإمبراطورية

عندما يتحدث الإنسان عن رموز الإمبراطورية فيجب أن لا يغيب عن باله الإشارة إلى اثنين من أهم الرموز التي تدل على مكانة الإمبراطورية، والتي احتفظت مع الزمن بعلاقة فريدة تماماً وغريبة مع العالم العربي: الرمح المقدس أو رمح موريس الذي يتم عن طريقه (انتقال) سلطة الدولة، وسيف الإمبراطورية الذي كان يلف يطوق في الأصل خصر القيصر أثناء احتفالات التتويج والذي كان يحمله إليه فيما تلا ذلك من الزمن كبير موظفي البلاط الوارث. وكان اسم موريسيوس مرتبطاً أيضاً بسيف الإمبراطورية، والسيف مكون من ثلاثة أجزاء صنعت في ثلاث حقب مختلفة وفي مناطق مختلفة كذلك، ذلك أنه بينما ينتمي غمد السيف إلى صقلية فقد تم صنع النصل في منتصف القرن ١١ في جنوب ألمانيا من أجل هانيريش الثالث، في حين فقد سيف الدولة الذي يوجد ضمن هذه المجموعة، تم صنع السيف الجديد الأكثر بساطة لتتويج أوتو الرابع ابن هانيريش الأسد الذي كان يحمل تاج فريدريك الثاني.

ولكن كيف يعرف أنه سيف موريسيوس؟ إن هذا الاسم يطلق على سكان موريتانيا التي كانت تقع بالنسبة إلى الرومان في شمال إفريقيا في موقع المغرب وغرب الجزائر حالياً. كما أن "الموريسي" وهو الرجل من موريتانيا كان قائداً للفرقة الطيبية التي تنتمي إلى طيبة بمصر، والذي رفض -حسبما ترويه إحدى الأساطير المسيحية عنه- على الرغم من مكانته العسكرية، إطاعة أوامر ماكسيمليان باضطهاد المسيحيين. وتقول الأسطورة التي تسمى "أسطورة الناسك" أن الموريس قد رفض إطاعة أوامر ماكسيمليان بالمشاركة في الأضحيات

الرومانية للرب لأنه كان يرى في ذلك عملاً وثنياً. وأن فرقته المكونة من مسيحيين على استعداد لمقاتلة الباوجونديين المتمردين ولكنها ليست مستعدة لاقتراف الذنوب عن طريق مذابح الأضحيات التي تقام قبل المعركة. ولذلك فقد تم شنقه بالقرب من أجاونوم في وادي الرون عام ٣٠٢ .

وترتبط بذلك الرجل المغربي الذي أصبح شهيداً وقديساً التقاليد المختلفة والمتناقضة فيما بينها والتي لا يزال أثرها باقياً حتى اليوم. ولأن موريسيوس كان جندياً فإن الكنيسة وهي تشعر بالحرج في سبيل إيجاد قديسين للقتال ضد أهل الجاهلية، قد جعلت منه في القرن الحادي عشر قديساً للفرسان، وذلك على الرغم من أن هناك رواية أخرى للأسطورة تشير إلى أن رفضه للحرب بالذات هو الذي جعل منه شهيداً.

كذلك بدأ العمل بتقليد آخر عند إنشاء دير سانت موريس بالقرب من "أجاونوم"، والذي تمت إقامته على الطريق الرئيسي الكبير المؤدي إلى إيطاليا في عام ٥١٥ بواسطة ملك البورجوند، وهو أقدم أديرة البورجوند وسويسرا حالياً، وكان يستخدم كذلك مقراً لتتويج ملوك البورجوند. وقام القيصر أوتو الأول عام ٩٣٧ بالنظر لصلاته بالبورجوند بإطلاق اسم القديس الموجود على الدير الذي أقامه في ماجدبورج داخل قلعته الملكية، قام بإطلاقه على ممتلكاته وأرضه، ولذلك ظل اسمها مرتبطاً به بشكل خاص. وقام كذلك بنقل رفات القديس موريس إلى ماجدبدرج، وبذلك أصبح القديس في نفس الوقت راعياً لماجدبورج التي كانت المركز المتقدم نحو الشرق والعاصمة الجديدة لإمبراطورية الساكسون وللأسرة المالكة الساكسونية .

وأخيراً أصبح هذا القديس حامياً للإمبراطورية ! حيث ارتبط اسمه من ناحية مع القديسة (لانتسة)"Lanze" التي كانت تجسد منذ القديم عزّة وسموّ الملك، وكان السلاح القديم الموروث لرب الأسرة المالكة أودين "odin" وهو رمز ملك الجرمان، وبقاؤه كان مستمر الوجود في صورة تلك القديسة. ولقد أخذت العديد من الأشكال المسيحية وأصبحت ضمن كنوز التتويج للإمبراطورية بصفتها القديسة " لانتسة الموريسية " (Mauritiuslanze) .

ومنذ تتويج القيصر هانيريش الثالث في عام ١٠٤٦ أصبح اسم موريس يرتبط أيضاً بسيف الإمبراطورية الذي كان يُسلم إلى المقاتل والفارس من الشرق الألماني الذي يبرهن على كفاءته في كنيسة القديس موريس بكاتدرائية سانت بيتر .

إلاّ أنّه لم تنته عند هذا الحد عملية تحول قدّيس شمال إفريقيا من المنطقة التي أصبحت تسمى المغرب فيما بعد، فأثناء الحروب الصليبية التي كان يقوم بخوضها أمراء شمال ألمانيا كثيراً في الشرق الجاهلي الجرماني والسلاڤي، فقد أصبح قديس ماجدبورخ حامياً للنضال المسيحي ضد الكفار. وكان قد أعلن قديساً بشكل خاص لأنه رفض محاربة المسيحيين وكان العصر الشتاوفي [1] الذي تذكر أصله الأجنبي قد صوره كفارس آل شتاوفن وهو بمعداته وفي وضع الدفاع من خلال نصب حجري في كاتدرائية ماجدبورج، ولغرابة الأمر كان يحمل ملامح المسلمين المغاربة بالشفاه الغليظة المتورمة والقسمات القاسية التي يتحلى بها الزنوج. ولابد أن هيئة ذلك المغربي ظلت تخلب لب الناس عبر القرون، ولقد ظهرت صورته في كاتدرائية ماجدبورج في ثلاثة مواضع، فهنا يبدو كفارس شاب رشيق القوام في رقة بسيطة مرنة وهناك في هيئة مشدودة بقوة مليئة بالمعاني

(١) نسبة إلى آل شتاوفن.

تكاد تثير في الذهن صورة راقصي الموريسك، وفي كل الأحوال مرتدياً زي الفارس هو يحمل الرمح المقدس والشعار الخاص بالإمبراطورية وعلى رأسه شعر معقود (في بوكلات) بطريقة غريبة في أكمل صورها وشفاه واضحة المعالم.

التي كانت تعني التجسيد الكامل للوثني النبيل.

وفي كنيسة سان موريس في "هالة" وضع على تمثال القديس لباساً أسود قاتماً وعلق عليه حزام ذو أجراس تحدث صليلاً، في حين كان التمثال يعطي انطباعاً غريباً حقاً بالعينين السوداوين تحت خصلات الشعر السوداء المبعثرة والذقن السوداء والشفتين الغليظتين.

وهكذا استمرت محاولات التذكير بأصله. مستمرة كما أن الجيوش العربية البربرية التي عبرت مضيق البحر عام ٧١١ مع قائدها العسكري طارق منطلقة من موريتانيا والمغرب واستولت على إسبانيا فلقد كانت تحصل بصفة مستمرة من هناك على بعض الإمدادات الحربية أحياناً وغيرها من الإمدادات أحياناً أخرى وذلك عن طريق جيوش المرابطين والمهديين مثلاً. الإسبان المسيحيون يسمونهم "الموروس" أو "الموارنة"، كذلك فإن الموارنة تحولوا إلى "موهريين" سود في تصور أبناء الغرب وهؤلاء لم يكونوا أبداً في إسبانيا نفسها، فما بالك في المغرب، كما لم يتعلموا التمييز بين سكان شمال إفريقيا وبين الزنوج.

ولكن وفقاً لما تؤكده الأعمال النحتية الراقية والجميلة في كاتدرائية ماجدبورج، فإن الألمان قد تعلموا كيف يحترمون فيمن ينتمي إلى الموارنة صفات الفارس وصفات الانسان النبيل. كذلك فإن "نشيد الجودرون" قد سمي بطله الكبير القادم من آتسابة "Azabe" سيجفريد فون موهرن لابد أي من بلاد الموهرن

"Siegfriedvon Mohrenland" ، كما اعترف النشيد بملك الموهريين الذي يتميز عن غيره، بأنه يحمل فوق بشرته السمراء شعراً "كما لو كان مجدولاً من الذهب" ولم يكن في وسع أي فارس أن يصبح أكثر منه شجاعة، وكان الجميع يحبونه "على الرغم من أن جسده كله ذو بشرة سمراء". وعلى الرغم من أن من جاؤوا من بلاد الموهريين كانوا يسمون كفاراً إلا أنه كان معروفاً منذ وقت طويل أنهم أفضل من سكنوا أرجاء المعمورة. " كذلك فإنه بالنسبة إلى ڤولفرام فون إيشنباخ فإن الشخصيات المفضلة لديه هي "فايربفتز" و "رينيڤارت" اللذان وصفهما كمثال للفرسان، كانا أبناء لعز الدين أحدهما عربي والآخر ألماني. ولذلك فإنهما كانا حسب تصوره "ذوي لون أبيض وأسود" أشبه برق الجلد المطبوع: " وكان وجه البطل أسود ذو بقع سوداء" كذلك فإن ماتياس جرينيالد صور حوالي عام ١٥٠٠ في لوحته " لقاء مع القديس إرازموس " القديس موريس كرجل موهري أسود كالقطران وسط أسلحته اللامعة، وهي رموز جديرة بالتقدير لأنها تدل على التسامح الفرساني الذي مكنّه من أن يرى في "الموهريين" نموذجاً للفارس والقديس.

وحتى اليوم لا يزال موريس يمارس دوره القديم على الرغم من تراجع مكانته بعض الشيء. وذلك كراعٍ لسلاح المشاة رغم احتفاظه بلونه القاتم وأخيراً فإنه لايزال موجوداً في أسماء رجالنا القديمة الجميلة مثل "موريس" ، ذلك الذي يجب أن يتعذب أولاً لدى ڤيلهلم بوش داخل المدخنة حتى يصبح أسود كالغراب مثل "الموهريين" .

الهبات العربية للكنيسة والمنزل والحدائق

ولنعد إلى ميراثنا العربي. ولكن علينا فقط أن ندرك أن الكنيسة هي الأخرى لم تكن بمنأى عن تلك التأثيرات، ذلك أنه بغض النظر عن أن الأقمشة الحريرية النفيسة الرائعة الألوان جاءت عن طريق الوثنيين، ولم تعد بيزنطة وحدها قادرة منذ وقت طويل على إرضاء الطلب عليها - وكانت أغلبها تطرز لشخصيات أسطورية من الذهب أو اللؤلؤ - فإن تلك الأقمشة كانت تُلقى على الهياكل والمنصة وتتدلى من سقوف الهياكل فوق رؤوسهم. وعلى الرغم من أن القديس بيرنهارد قد انفجر غاضباً إزاء السماح لوجود مثل تلك الشخصيات المريعة في الأماكن المقدسة وأثناء ممارسة الشعائر الدينية» - إلا أن الجلالة القيصرية نفسها كانت تبرز بهاء رجال الدين الذين تحلوا بالأردية المحلاة بالجواهر الشرقية البراقة والحلي التي نسجت بأيدي الوثنيين من الحرير، والقصب العربي و كذا بالأرابيسك والكتابات الكونية. وهذه نجدها حتى الآن في كافة كنوز الكنائس القديمة، وفي الهدايا الثمينة التي أتت من الشرق مباشرة بواسطة الحجاج والفرسان الصليبيين مثل الموجودة في كاتدرائية "هالبرشتادت" منذ عام ١٢٠٩ هـ وفي كنيسة ماري في "دانزج" وفي مينستر بآخن وفي كاتدرائية "كور" أو في دير لوبنيه حيث لم يجد المسيحيون الأتقياء غضاضة في التسبيح بالمسبحة التي نقلها العرب عن الهنود منذ القرن الثامن الميلادي، فاتخذت من العالم الإسلامي لها موطناً وتسمت في الألمانية باسم (Rosenkranz) أي باقة الورود لخطأ في الترجمة ظن صاحبه أن بابا مالا (المسبحة) وبابا ملا (باقة الورود) شيئاً واحداً

وتصور أن المسلم يحرك بين أصابعه حبات المسبحة التسع والتسعين مع أسماء الله الحسنى وكأنه يضمها إلى باقة من الورود. وبنفس القدر أو أقل نجد أن المسيحيين الأتقياء يذكرون أسماء باثرونوشر وآڤا ماريا مستخدمين " باقة الورود التي أخذها المسلمون عن الهند منذ القرن الثامن واستقرت لديهم. وكلمة باقة الورود ترجمة خطأ لكلمة المسبحة " وهو العقد الذي يحوي ٩٩ جوهرة بين كبيرة وصغيره وهي التي تنزلق بين أصابع المسلم وهو يسبّح بأسماء الله الحسنى الـ ٩٩، وهي لا تزال مستخدمة حتى اليوم في العالم الإسلامي دون انقطاع سواء في الصلاة أو لشحن القوى الذاتية أو لمجرد اعتياد الأصابع عليها وهو يمتطي ناقته يجلس الرجل فوق ناقته أو خلال تبادل الأحاديث داخل الخيمة أو في السوق، وفي قاعات الفنادق، ومحطات البنزين حيث إن هذه العملية تتكرر أشبه بنبضات القلب بين أيدي ملايين المسلمين بشكل تلقائي.

وكما أن الكنيسة جلبت المرّ والأبخرة من البلاد العربية، فإن الشرق يهدي اليوم الغرب الكثير من مواد عطوره وأكسيره مثل: العنبر، والمسك وزيوت الورد، وغيرها من الزيوت الأثيرية، من اللوتس وزيت زهرة الخيرى، وثمار البرتقال، والهندباء، والموسك، وخشب الصندل، وثمار جوزة الطيب وكذلك بالعقاقير والأدوية العربية ومواد التلوين (الصبغات) اللازمة لورش النسيج، ونجد أسماءها موجودة أيضاً في العقاقير الألمانية وفي كلمة دروجة "Droge" نفسها مثل: الأليزارين والقلويات، والكحول، وعود الند، والنيلة، والأنتيمون، والعرق، واللازورد، والبلسم، والبنزين والبنزهار ولبان الحادي والبورون، وماء البورون والبرورق، وأبو العرق، والجص، والكافور، واللاكية وأحجار اللازورد والنطرون، والسكارين ، والسفلور (زهرة الفلوريس) وصمغ

الك (الشـيلاك)، والشـربات (سـيروب)، والصـودا، والكلوركم، والتلت، والشاش، الذي يشتق من القطن .

كذلك فإن التجار الإيطاليين من " أمالفي " وجنوا وفينسيا أضافوا إلى قائمة المطبخ- منذ أن أصبح الطريق البحري عبر البحر المتوسط أكثر أمناً، توابل الطعام التي كانت تصل شحيحة حتى ذلك الحين مثل، الفلفل المفضل كثيراً والذي يستخدم أيضاً في حفظ الأطعمة مع جوزة الطيب، والقرفة، والزنجبيل، والكارية، والكمون، والكبابة، والأراجان، والزعفران، وجذور الخلنجان . كذلك فان الخرشوف (أرض شوكي) والهدبا، والشيكوريا، والهليون، والسبانخ، والقفلوط، أو الزبيب، والأرز والقهوة، والبن تغني قاعات الطعام الألمانية، وبصفة خاصة السكر الذي لا غنى عنه مع (القند)، الذي يستخرج من قصب السكر، الذي كان العرب يزرعونه في إسبانيا، وصقلية، وبدأ استيراده من ليفانتة "levante"، حين انتهت زراعته هنا. تلك النباتات الشبيهة بالدريس والتي صادفها الصليبيون العطشى بعد تجوالهم في الصحراء، وذلك من أجل ابتلاع ذلك " العسل القوي " كما أسموه بسبب عصيره الحلو، وبسبب جوعهم الشديد. ولأن السكر، ظل لفترة طويلة، باهظ الثمن في ألمانيا - حيث كان المرء يدفع عام ١٤٨٨ من أجل رطل من السكر قدر ما يدفع ثمن خنزيرين ونصف، فقد كان يتم خلال الصوم صنع خبز من العسل. وتوضع كافة التوابل العربية في خبز من الفلفل أو الكمك وكحل الفلفل و ثمرة الفلفل، والقرفة التي تُعّد على شكل النجوم .

وكان هناك منتج عربي يجري من السكر واللوز وماء الورد قد مرّ بمسار غريب، ذلك هو المارتسيبان. وبالرغم من أن الدلائل التي تبدو واضحة على

تطور الكلمة في العهود التالية اشتقاقاً من اسم "مارس بانوس" أو خبيز ماركوس فإن الاسم اشتق في الحقيقة من الكلمة العربية "ماوتبان" والتي تعني في الأصل "الملك الجالس". فقد أطلق العرب هذا الاسم على عملة بيزنطية تظهر المسيح جالساً على العرش. وتطورت الكلمة إلى "العلبة". وفي نهاية المطاف إلى الحلويات الموجودة في هذه العلبة. وتحولت في فينسيا إلى ماوتبان، وفي ألمانيا إلي مارتسيبان. وفي فرنسا وإيطاليا وسويسرا حيث ترك الزحف العربي الذي وصل لبعض الوقت إلى "إنجادين" مع بداية القرن العاشر بعض التأثيرات، كما حدث في باورستين وفي أسماء العائلات مثل (ساراز) وفي أسماء الأماكن والردهات مثل (بونتر زينة)، وفي (بونس ساراكانا) وفي (أينا) أي. النبع، كما أن القمح الذي يصنع منه الخبز لا يزال يسمى حتى اليوم "قمح الشرقيين في حين ذكر في اللهجة الشقابية على أنه "قمح الكفار" وتم اختصار التسمية في لهجة بافاريا إلى "مايدن".

ولم يتم استيراد الذرة من أمريكا وهايتي بل قام بونيفاس فون فونيتفرات بإرسالها من الشرق إلى الغرب وكان ذلك عام ١٢٠٤.

ولم يكن العرب هم وحدهم الذين أثروا قائمة الطعام الألمانية، ولكن أيضاً الشرقين الأدنى والأقصى، حيث اشتملت القائمة على: المشمش، والبرتقال والموز والكمثرى، والليمون، والخوخ، والتين، والبرقوق، والراوند، والقيدونيا، والتمرهندي، والجريب فروت والقراصيا، كذلك فإنهم زودوا حدائقنا بالفيلدر والياسمين والكاميليا والفورسيا، وكذا بكافة أنواع الزهور التي جاءت في الأصل من فارس. وقام العرب بزراعتها خاصة في سوريا والبروڤانس مثل الزهرة الدمشقية التي يستخرج منها زيت الزهور، وكذلك الزريكون،

والليلك، وورد الماء، وأبو فروة. كما أن وسائل الرّي العربية وفنونهم الراقية في استخدام المياه، أدت إلى تجميل تلك الحدائق. كما أن طواحين الماء والهواء، التي تحول العناصر إلى طاقة دافعة، والتي ظلت تسيطر على الزراعة الأوربية بقوة حتى مئة عام مضت، تعد كذلك ميراثاً عربياً.

المهن العربية والصناعات الأوروبية

وكما أن العرب أظهروا ملكاتهم الفنية في الاختراعات الميكانيكية، مثل تصميم مختلف أنواع الساعات، وأجهزة القياس الفلكية والبوصلة، وكما ذكرنا في كتاب "شمس الله تسطع على الغرب"، فإنهم فكروا أيضاً في أساليب فنية خاصة بالحرف المتعلقة بإنتاج الورق والمعادن والجلود والزجاج والسيراميك وتصنيعها. وقد وجدوا في أوروبا بعض المتحمسين لاقتناء تلك المنتجات، التي بدأت أوروبا من جانبها في ذلك الوقت في تصنيعها في مصانعها الخاصة وتمَّ إنجاز ذلك في البداية بمساعدة العرب.

ولقد كان إنتاج الورق والكرتون المخصص للاستخدام اليومي ذا أهمية بالغة بالنسبة إلى الحياة الفكرية للغرب، وكان الورق قد أخذ عن الصينيين في القرن الثامن غير أن العرب هم الذين أدخلوا عليه التحسينات الضرورية، وقد نقله التاجر أولمان شترومر عام ١٣٩٠ من ياتيڤا في إسبانيا إلى نيرنبرج. وفي الحقيقة كان هناك مصنع للورق موجود بالفعل منذ عام ١٣٢٠ على الراين بين ما ينزوكولون. وفي عام ١٤٠٧ بدأ تشغيل مصنع بالقرب من راڤينسبورج وفي عام ١٤٤٠ تبعه مصنع ثالث في بازل.

واستطاع أسلوب الزخرفة الذي ابتدعه العرب، أن يجد صدى خاصاً لدى الغرب. فقد كان يتم بمقتضاه إنتاج أروع النماذج التي استندت عليها أيضاً شهرة السيوف الطليطلية والدمشقية. ويتمثل ذلك الأسلوب في وضع خيوط الذهب والفضة في مسارب تزيين من الأرابيسك على مساحات من الحديد، أو البرونز أو

النحاس، وذلك فوق الشمعدانات والأطباق، والزهريات ومعدات الكتابة، وكذلك على الأسلحة، والرماح، والسيوف والخناجر. كما كان هناك إقبال خاص على أعمال الحفر (النقش) السورية على الأسطح الخشبية، والحوائط، والأثاث وقطع الديكور من الأخشاب و العاج، والأصداف الملونة.

وما زالت أسماء جلود "الكور دواني" و "الماروكي" القادمة من قرطبة والمغرب و(صفيان) المصنوع من السوماك تنم حتى اليوم عن المكانة العالية التي احتلتها صناعة الجلود العربية. وعرف العرب بفضل تصنيعهم وإعدادهم لمنتجاتهم الجلدية كيف يعطونها نوعية خاصة ويضفون عليها ذلك السحر التقليدي الذي تشتهر به الحرف العربية الفنية، عن طريق رسم النماذج الزخرفية والأرابيسك عليها وتطعيمها بأوراق الذهب. وتعد صناعة الجلود في زوفنباخ خير مثال لذلك الفن.

كما أن الفن العربي في معالجة الزجاج والأساليب الفنية في التزيين به يُعدّ واحداً من مجالات تفوق العرب التي استفاد منها الغرب بشكل كبير. كذلك فإن تزيين المنتجات الزجاجية والصلصالية والطينية، مثل الفناجين والأباريق المغطاة بطبقتين من الصيني، والتي تزدهر بشكل خاص في بغداد، ودمشق وحلب، قد أدخله صانعو الزجاج العرب في القرن الثاني عشر في فينسيا، التي حصلت بمقتضى اتفاق مع دوقها على الأساليب السرية من صناع الزجاج العرب. وظلت تحافظ على ذلك الاحتكار في أوروبا حتى القرن السابع عشر. أما الألواح الزجاجية المستخدمة في تغطية النوافذ والمرايا الزجاجية فقد وجدت طريقها إلى صقلية حيث أتقن سكان باليرمو العرب طريقة إنتاجها. وكذلك إلى فينسيا ومنها انتقلت إلى ألمانيا. واخترع العالم العربي ابن فرناس - الذي صمّم أيضاً أول

طائرة أمكنهـا الارتفـاع عن سطح الأرض- اخـتـرع في نهـاية القـرن التـاسع الكريستـال في مـعـمله بقـرطبـة ، التي ظلّت تملك لوقت طويل احـتكار صناعـة زجاج الكريستال، في حين كانت مصر تصنع الكريستال الجبلي وتصقله لتحويله إلى أكواب فازات وصناديق حنظر، والتي لا تزال تضمها الكنوز الكنسية الألمانية حتى اليوم، ووصلت عبر فينسيا أساليب تصنيع الكريستال وفنّ صقله إلى باڤاريا وحتى إلى المناطق في غاباتها . كما قامت مصانع إنتاج الفن " والبلاط والأطباق والأواني وأطقم المائدة في جزيرة مالوركا حيث كانت تعرف باسم "مايوليكا" (Mjolika) وفي فـانيسـا الإيطاليـة باسم "فـاينس" وفي كل من ديلفـت ، هاناو، فولدا، برلين ، أنسباخ وبابرويت .

وبدأ يتدفق على أوروبا التي كان لديها استعداد لاستيعاب تيار من المنتجات الفاخرة الممتازة التي سرعان ما أصبحت من ضروريات الاستهلاك وكان التجار الألمان الذين يسافرون لمسافات بعيدة هم أداة توصيل ذلك التيـار من مراكـزه الإيطاليـة الوسيطة في ڤينسيـا وباڤيا، عـبر مـضايق الألـب إلى مراكـز التجـارة الألمانية، وبداية من الفلفل حتى الطرحة ومن المرآة حتى رؤوس الرماح الدمشقية كـانت تلك المنتجات العربية مرغوبة إلى حد أنها ظلت تحافظ على دوران عـجلة الحياة الاقتصادية وتمدها بأسباب بقائها لفترة طويلة من الزمن .

"الدينار الذهبي العربي"
أو "دولار العصر الوسيط المبكر".

كان للامتداد الإسلامي الذي طال كافة البحار وصولاً إلى جبال البرانس أثره الخاص على الحياة الاقتصادية في أوروبا وقد سدت السبل أمام الملاحة في البحر المتوسط، لأن القوة البحرية العربية والقرصنة أديا إلى إصابة التجارة التي كانت تتم حتى ذلك الحين بين الشرق والغرب بالشلل، ولكنها لم تُحاصر تماماً. وحين قام أحد التجار في "ماينز" بوضع بعض الدراهم العربية بين أيدي مبعوث الخليفة الإسباني "الطرطوشي" الذي عاد لتوّه من قصر الإمبراطور أوتو الأكبر إلى قرطبة. لاحظ الطرطوشي مندهشاً، أنه توجد هناك توابل لا مثيل لها إلا في الشرق النائي - في حين أن "ماينز" كانت في أقصى الغرب - مثل الفلفل، والزنجبيل، والقرنفل، و الزنجبيل الفالاندشان، والكوستوس. وبذلك اتضح أن الستار الحديدي بين الشرق والغرب لم يكن ستاراً بلا منافذ، ذلك أنه عبر الطرق البعيدة التي تصل بين الشرق العربي مخترقة أراضي الروس والفايكنج السويديين، وكييف، وبراج إلى "المغرب النائي" وصلت إلى ألمانيا وعلى نفس الطريق انتقلت المناديل أو الأسلحة التي تصنعها قبائل الفلاندر أو الفريزين وسيوف الفرنجة والعسل والتصدير إلى أسواق بغداد، مثلما حدث لهدية شارلمان - منديل أسود فريزي- التي وصلت إلى أيدي هارون الرشيد، خاصة بعد أن تمكن أوتو الأكبر عام ٩٥٥ من وقف إعصار قبائل آسيا المدمر في ميدان "ليش"، فأصبحت الطرق أكثر أمناً وازدهرت التجارة أكثر من ذي قبل.

وأثبتت الأبحاث الحديثة أن الدنانير العربية الذهبية والدينار العربي الفضي الذي كان إنتاجه يتدفق من مناجم الذهب المهمة في نوميديا ومن مناجم الفضة الغنية في غرب التركستان والتي بدأت تتدفق في ذلك الوقت بكميات كبيرة على الدول الأوروبية بسبب فيضان التصدير، ظلت طوال قرون هي العملة الرائدة في العالم المتحضر كله. وهكذا كانت النقود العربية هي "دولار" ذلك العصر. وكانت قيمة الذهب والفضة في العالم العربي تحدد ارتفاعه أو هبوطه وتدفقه على أوروبا أو انحساره عنها، ولذلك كان أيضاً للإصلاح النقدي الذي قام به الخليفة عبدالملك حوالي عام ٧٠٠هـ، وإصلاحه لنظام سك العملة، ولكافة شؤون الاقتصاد النقدي أثر مباشر على التطورات الاقتصادية والاجتماعية برمتها لدى الغرب. كما أن حركة دورة الدينار الذهبي الغربي أو ما يسمى "مانكوس Mancus" التي تقابل بالعربية "منقوش"، الذي يعتبر وسيلة الدفع الفعلية في إيطاليا، وإنجلترا، في القرن السابع، كانت تربط على الأقل هاتين الدولتين مؤقتاً في شكل من أشكال الاتحاد النقدي.

ولكن ما الذي تعنيه في مقابل ذلك الحقيقة الخاصة بأنه وجدت في ألمانيا كميات بسيطة نسبياً من العملات العربية؟ إن عدم قدرة التاجر الصغير في ألمانيا على قراءة النقوش العربية على العملات، جعلته لا يقبل عليها، ولذلك سرعان ما اختفت من عمليات التداول، حيث قام العديد من كبار المتعاملين بالعملات على المستوى المحلي بصهرها. كما أن ثبات القيمة المعدنية لتلك العملات العربية جعلها تظهر من جديد، ولكن في صورة جديدة في أكياس اليهود، والمشتغلين باستبدال العملة.

جرى حدثٌ في شمال أفريقيا العربي، لم يكن له عظيم الأثر هنا إلا أنه ترك بصماته بالنسبة لأوروبا، حيث أسهم في تخفيف حدة القيود في البحر المتوسط، وذلك حين نقلت الأسرة الفاطمية محلْ إقامتها من القيروان الواقعة في غرب أفريقيا إلى الفسطاط في مصر. لقد بدأت تخف قبضة القراصنة العرب، الذين كانوا يعودون إلى المنطقة كل عام. كما أن المدن البحرية الإيطالية، وعلى رأسها بيزا، وجنوا، قامت بإبعاد عرب سردينيا، وكورسيكا وتمكنت منذ ذلك الحين بالإضافة إلى فينسيا وأمالفي من إرسال سفنهم التجارية إلى عرب شمال إفريقيا، وإلى بيزنطة وليفانتة[1] حيث كانت تلتقي طرق القوافل والممرات البحرية من الشرق الأقصى والهند، وذلك قبل وقت طويل من الحروب الصليبية التي حققت لهم إزدهاراً لم يكن يخطر ببالهم وجعلت منها إمبراطوريات تجارية مستقلة وقوية.

وكانت تلك المدن هي المستفيد الوحيد من العملية التي استمرت قرنين من الزمان تقريباً وانتهت بهزيمة فريدة للمسيحية الأوروبية الغربية في مواجهة الإسلام. وكانت أكبر عملية تقوم بها تلك المدن هي نقل الجيوش الصليبية وعقد الصفقات المتبادلة والقروض مع الفرسان الصليبيين والحجاج. كما أن استيراد المواد الخام من الشرق، ومنتجات الحرف العربية الفنية أصبح يسير بسهولة أكبر لأن تلك البضائع كانت تشغل حيزاً تخزينياً صغيراً للغاية، كما أن تلك التجارة حققت ازدهاراً جديداً في اللحظة التي انتهى فيها زمن رحلات السفن الممتلئة دوماً كما تم ذلك بصورة زاد معها الطلب في الوطن على الملذات المشتهاة والمنتجات التي أصبحت شائعة، وانتعش معها الاقتصاد وزادت الثروة.

(١) ليفانتة: تطلق على دول آسيا الصغرى في شرق البحر الأبيض المتوسط.

وكان لدى المدن البحرية الإيطالية في كافة موانئ شرق البحر المتوسط وشمال إفريقيا، مراكز تجارية ومستودعات تخزين دائمة. كما كانت تمتلك طرقاً وأحياء خاصة. وبينما كانت السفن تربض هناك طوال الشتاء في مراسيها، كان تجارها يكتسبون التجربة العملية القديمة في الشؤون المالية، والجمركية، والضريبية، المتعلقة بالقروض، والحياة الاقتصادية بشكل شامل. بالإضافة إلى تمرسهم في فنون الحساب، ومسك الدفاتر العربية، وأسلوب مراقبة الأسعار والموازين. وهكذا فإنه عندما كانت السفن تقلع من جديد كانت تعود إلى أوروبا محملة بالبضائع العربية ولكنها كانت تأتي معها بالأساليب والطرائق العربية في عقد الصفقات مع التعبيرات نفسها المتخصصة المستخدمة في تلك المجالات، مثل: الباراك (مبنى خشبي بسيط) والمجازين (مخزن) والمخاطرة والشيك والسمسار (سنسال) والطرحة، والإسترليني والتعريفة، والتفريق (ترافيك: تجارة)، ودار السك (دار السيكة) (Darassika) والأفال (الضمان التبادلي) وهي الكلمة القديمة، كذلك فإن كلمات: الترسانة (أرسنال) والأدميرال (أمير البحر)، والترجمان (Tardschuman) والفلوكة والبوارية (أي البضاعة الفاسدة) والكابل، والإسفلت، والفرقاطة. وحتى كلمة الروح كانت كلها دلائل على التعامل التجاري القوي الذي استمر قروناً بين العالم العربي وإيطاليا حيث انتقل منها، وبصفة أساسية من ڤينسيا، التي كانت تعتبر أكبر مركز تجميع للمنتجات العربية، انتقل منها بواسطة التجار الألمان إلى ألمانيا عن طريق القديس بيرنهارد العظيم وعن طريق أهالي سيبتمانيا، ويشمل ذلك أيضاً "الكرڤان".

وهو التعبير الذي كانت تطلقه طوائف الفرسان الألمانية على مرابط الجياد في حين كان اليوحانيّون يطلقونه على أطقم الحصون والسفن.

كما تشمل القائمة كلمة "الفندق" وهو مكان الإيواء والتعامل بالطريقة التي جهزته بها دولة ڤينسيا للتجار الألمان على الجانب الآخر من الألب. و هو مكون من ستة وخمسين مسكناً وغرفة لإيواء الناس، والجياد مزودة بأفرانها الخاصة وورشة للعمال، ومخزن للبضائع وصالات للبيع. وكان اسمه "فندق دي تيدش (Fandaco deitedeschi) ويقع بالقرب من جسر ريالتو، ولا يزال قائماً حتى اليوم، حيث يستخدم مقراً رئيسياً لهيئة البريد. كما أننا نعترف باختراع غيّر وجه العالم هو البوصلة التي صنعها العرب استناداً إلى الإبرة الممغنطة الصينية وذلك في القرن الحادي عشر وكانت قد وصلت إلى الغرب عن طريق الفارس الصليبي بطرس فون ماريكورت" أو بطرس بيرجبرينوس الذي أصبح فيما بعد أستاذاً لروجر باكونس. وهو ألف عام ١٢٦٩ عقب عودته من حملته الصليبية أثناء حصار لوكيرا في جزيرة صقلية، والتي استخدم فيها معلوماته الفنية التي اكتسبها في الشرق، كتابه عن المغناطيسية والبوصلة كما تعلمهما عن العرب.

وبينما كانت منافذ العالم العربي تنفتح وكانت التجارة الشرقية تفيض على الأرض الأوروبية والألمانية بالتأثيرات الحضارية العربية، فإنها بعثت في الحياة اليومية الجافة، الجرداء والمتواضعة ليس فقط نوعية جديدة من الدماء، بل لقد نشأ إحساس جديد تماماً بتلك الحياة.